الفصل الرابع

الزمكان والفلسفة والأنا الحاضر

محاولة للفهم والتأمل

ما أكثر الألفاظ والمصطلحات التي نستخدمها في حياتنا وتتداولها ألسنة ومسامع العوام والمثقفين على حد سواء - بحكم العادة - دون أدنى فحص أو تمحيص لمعانيها الدلالية والاصطلاحية المتباينة تبعا للسياق الذي تطرح فيه خلال الحقول المعرفية المختلفة، الأمر الذي يدفعنا إلى الكشف عن ذلك ورفع الستائر عن المقصد قبل الخوض في المشكلات الفلسفية ذات الصلة بمقولتي **الزمان والمكان** وكذا المعاني المتعددة للفظة **الأنا** ومصطلح الحضور:

فالزمان في معناه اللغوي (هو الوقت الذي ينقسم إلى ساعات وأيام وشهور وسنين وفصول..... إلخ).

وعلى بساطة المعنى يحمل اللفظ العديد من الدلالات الاصطلاحية تبعا للسياق الذي يطرح فيه كما ذكرنا فمصطلح الزمان عند النحاة يعني الماضي والحاضر والمستقبل أي وقت حدوث الفعل وكذا في الوعاء السردي المجازي أو الحقيقي بغض النظر عن طبيعته عند البلاغيين. والزمان والمكان عند

الفيزيقيين يعبر عنهما بالحركة التي يمكن تمثلها بوحدات تقيس سرعة الصوت أو الضوء بين نقطتين تمثلان المكان. وهو عند المؤرخين يعنى الحقبة والدهر والعصر والتقويم وما قبل التاريخ والحديث عن أسباب انهيار الحضارات وعصور ازدهارها والحقبة التي نشأت فيها الفرق والأيدلوجيات وحدوث الوقائع. وهو كذلك عند الجيولوجيين وعلماء الحفريات والمنقبين عن الآثار. وعلم الجمال يميز بين الفنون الزمنية (الموسيقى - الرقص - الشعر - القصة - المسرح) أما باقي الفنون فهي مكانية وإن كانت لا تخلو مما يعبر عن الزمن. وفي الأدب يشير الزمان والمكان إلى الوقت الافتراضي وموضع الأحداث والمكان المجازي والفضاء الروائي. والزمان والمكان عند الصوفية ذاتي نفسي شعوري حدسي وكل ألفاظه مثل الساعة والأمد والأبد تحمل دلالات خاصة تختلف من صوفي إلى آخر بحسب ما يشعر به من أحوال ومقامات أثناء الحضرة الإلهية والاتصال والوصال والفناء والبقاء في عالم الروح.

أما عند الفلاسفة فقد تباينت دلالته تبعا للنسق الفلسفي أو النظرية أو النزعة، فالزمان عند الطبيعيين تختلف دلالته عن معناه عند المثاليين أو النقديين الكانتيين أو الفيمونيملوجيين أو الوجوديين والتفكيكيين، ذلك فضلا عن المشكلات التي أثيرت من جراء تحديد معنى الزمان مثل قضية الثبات والصيرورة والزمان الكوني المطلق والزمان النسبي المحدود والزمان الشعوري والزمان العقلي وأسبقيته على المكان أو تلازمهما ناهيك عن القضايا ذات الصلة منها ارتباط الزمان بالمكان وقدم العالم وحدوثه ووجود الله ونهاية الزمان والزمان الوجودي ونهاية التاريخ المرتبط بالمفهوم الأيدلوجي ونهاية العالم المنبثق من المفهوم اللاهوتي والعالم الأخروي حيث الحساب والدورات اللانهائية للعالم عند القائلين بوحدة الوجود.

و إذا انتقلنا إلى مقولة المكان سوف نجدها كذلك تختلف دلالتها القاموسية عن معناها الاصطلاحي والسياقي الإجرائي. فالمكان في اللغة هو المنزلة والحيز والأين والموضع، وهو عند الجغرافيين الحيز المحدد على الخريطة، وفي ميدان السياسة يعبر عن الرتبة والقدر، أما في الفلسفة فالمكان هو (الأين) و(الكون) وتتعدد معانيه: فيوصف بالمطلق والنسبي والممتد والمحدود والملاء والفراغ والواقعي والافتراضي ذلك فضلا عن ارتباطه بمصطلح الزمان والإشكاليات العالقة بهما بداية من المشكلات اللاهوتية ونهاية بالنظريات العلمية والتصورات الذاتية.

و إذا انتقلنا إلى مصطلح الفلسفة فسوف نجده يتجاوز معناه اللغوي المتعارف عليه بمحبة الحكمة فنجده تارة يعنى النسق العقلي وتارة أخرى يعنى المنهج وتارة ثالثة وعاء الحقيقة أو مرآة الأنا أو المجتمع أو السبيل لدراسة الواقع. ناهيك عن المعاني المتداخلة للفظة (الأنا) التي عبر عنها الفلاسفة والصوفية بدلالات عديدة منها الأنا الذات والأنا الفرد والأنا الشخص والأنا المدرك والأنا الهوية والجنس والنوع والأنا العاقل والأنا الموجود والأنا الفاعل والأنا الشاعر والأنا الكامل والأنا الأعلى، وكل هذه المعاني تتباين وتختلف كما ذكرنا تبعا للخطاب أو السياق المطروح وكذا صفة الحضور فالحاضر عند الفلاسفة لا يعنى الموجود فحسب بل نجده عند المثاليين يمثل الوجود الحقيقي وعند الواقعيين يعبر عن الوجود المحسوس المؤثر وعند الفيمنيمولوجيين يعبر عن الوجود الواعي بعقله ومشاعره وعند اللاهوتيين يعنى الوجود الإلهي مقابل الوجود الإنساني وعند الوجوديين يعني وجود الأنا الإنسانية الحر المبدع الملهم.

وهكذا يمكننا التصريح بأننا أمام واحد من الموضوعات الفلسفية التي ما زالت تشغل الحيز الأكبر في الفلسفة المعاصرة وذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار المعاني المستترة وراء كل لفظة في العنوان وعليه يمكننا قراءة النص **(الزمكان والفلسفة والأنا الحاضر)** على أنه طرح ذاتي ما بعد حداثي يطرح رؤية نقدية للعصر بكل ما فيه من قضايا، هموم، عذابات، آمال، طموحات، كوارث، نكبات، كبوات، ماضي نستغرق فيه وندين له بالولاء والانتماء وندافع عن مشخصاته باسم الأصالة والتراث التليد وميراث الأجداد أو نجحده. وحاضر لا نشارك فيه ونعجز عن التعايش مع ثقافته أو نحتل موقع المركز ونقوده ونسيسه. ومستقبل نجهله فتارة نحاول التخطيط له وتارة أخرى نرى فيه الجحيم فنصاب باليأس والخوف أو بالتفاؤل إذا كنا في موضع القوة والهيمنة والسيطرة. ومكان ننتمي إليه أو نبغضه أو نشعر فيه بالغربة أو نود أن نموت من أجله أو نئن من قسوته وجوره. وفلسفة تحمل قناعاته ورؤيته وتصوراته وأحكامه ونقوده وثوراته وانضواءاته وانطواءاته، والحقيقة التي نؤمن بها ولا نقبل دونها بديل. أما الأنا فهي مرآة النفس وهى الوجود المنعكس في عيون الآخرين وهى الذات الفاعلة أو الخانعة أو الثائرة أو التابعة أو التائبة أو الجاهلة أو الفانية أو الواعية أو المخدوعة أو الجائرة أو المظلومة، وبناء على تعريف الأنا يأتي معنى الحضور فالحضور إما أن يكون مؤثرا ومكانه في المركز أو يكون هامشيا ومسكنه الأطراف أو مهملا في دائرة الغياب.

نعم إننا سوف نجمع بين السرد والنقد والتحليل والمقارنة لنتمكن من إعادة بناء كل ما تحتو يه العبارة وما ينتج عنها من قضايا.

□□□